النحو الصوفي (نحو الإشارة أو نحو القلوب)

أ . د. حسن منديل حسن العكيلي/ جامعة بغداد / كلية التربية للبنات

المقدمة:

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنام محمد ، وعلى آله الطاهرين وصحبه المنتجبين وسلّم تسليماً كثيراً، وبعدُ.. فإن التجربة الروحية في الإسلام ميدان واسع يزخر بألوانٍ شتّى من العقائد والفلسفات جاء بها الإسلام وأقرّها القرآن الكريم، وأكدّتها السنة النبوية، وتبلورت في حياة الصحابة رضوان الله عليهم. حتى اتسمت بالفرار من الدنيا والصروح المادية، والانقطاع عن الناس واعتزال الحياة ثم تطورت إلى التصوف المعروف، وقد ضمت فيما بعد أشتاتاً من الثقافات الأجنبية عن طريق الترجمة والإختلاط المباشر بالأديان والفلسفات القديمة[1] .إن نشأة العلوم الإسلامية ومنها علوم العربية في ظل هذا الجو الروحي الإسلامي جعل هذه العلوم تتأثر في الجو الروحي العام السائد بين المسلمين ولا سيما لدى الطوائف الأولى من علماء العربية، ولدى الصوفية فيما بعد.من هنا تتبيّن أهمية دراسة اللغة العربية في ضوء التراث الفكري الإسلامي الروحي لارتباطها به ارتباطاً لا انفصام له، إلا إنها فُصلت عنه لدى الدارسين المتأخرين والمعاصرين في ظل الحضارة المادية الغربية التي اجتاحت المسلمين. والله الموفِّق، والهادي إلى الرشاد والعصمة. والحمد لله رب العالمين.

تمهيد: الفلسفة الصوفية اللغوية:

[1] ينظر تفصيل ذلك : الحياة الروحية في الإسلام 7 وما بعدها.

يرى الصوفية أن ثمة علاقة اشتراك بين الله تبارك وتعالى والعالم في ظواهر لغوية كثيرة في المستويات اللغوية كلها: التركيبي والصرفي والدلالي والصوتي، أما في المستوى الصوتي فيرون ((أن هناك توازياً بين مراتب الوجود والأسماء الإلهية من جهة وبينها وبين حروف اللغة من جهة أخرى، وأرقى مراتب الوجود : (العقل الأول أو القلم) ثم تنتقل من الصفاء والنورانية إلى الكثافة والظلمة بنفس القدر الذي تترتب به حروف اللغة في جهاز النطق الإنساني بدءاً من التحرر الكامل للهواء الذي يصدر عنه الصوت دون أي احتكاك أو ضيق في مجرى النفس، وانتهاء إلى حروف الشفتين اللتين هما آخر المخارج.

وهكذا تتوازى الأسماء الالهية مع مراتب الوجود مع حروف اللغة، ثمانية وعشرون اسماً توازي ثماني وعشرين مرتبة وجودية، توازي بدورها ثمانية وعشرين حرفاً هي حروف اللغة وهذه كلها تتوازى مع منازل القمر الثماني والعشرين.

لكنها ليست هي حروف لغتنا الإنسانية ، بل هي أرواح وملائكة تسمى بأسماء هذه الحروف التي نعرفها، وهي التي تحفظ الأسماء الإلهية ومراتب الوجود المرتبطة بها. فهي باطن الأسماء ومراتب الوجود التي تمثل ظاهر هذه الأرواح الحروف.

أما لغتنا البشرية المنطوقة والمكتوبة فهي تمثل أجساد هذه الحروف والأرواح وصورها الظاهرة. وحيث يريد الصوفي أن يؤثر في مرتبة وجودية يستدعي صورة الحرف في خياله، وهذه تستدعي بدورها روح الحرف والاسم الالهي الذي يحفظه روح هذا الحرف. وعلى ذلك يمكن إقامة التوازي بين اللغة الالهية واللغة الانسانية على مستوى الحروف على النحو الآتي:

حروف اللغة الالهية //الأسماء الالهية ومراتب الوجود // اللغة الإنسانية فحروف لغتنا الإنسانية ليست إلا صوراً ظاهرة حسية لارواح الحروف الإلهية [1].

[1] فلسفة التأويل 301.

يتبين أن الصوفية استندوا في مباحثهم اللغوية إلى الفلسفة الروحية. وهي فلسفة تنأى عن الأصول العقلية التي استند إليها علماء اللغة والنحو في دراساتهم، ولا سيما لدى المتأخرين، وأصبحت الأهداف تعليمية دنيوية، فعزلت العلوم عن مصدرها الحقيقي لذلك لا نجد إبداعاً حقيقياً إلا لدى العلماء الذين يحملون تلك الأهداف السامية.

فالأصول الأولى تربط كل شيء بالجانب الروحي الغيبي المصدر الرئيس للعلوم كلها وهو الله تبارك وتعالى. فيرون أن ((لكل اسم الهي روحانية ملك تحفظه وتقوم به ، لها صور في النفس الإنساني تسمى حروفاً في المخارج عند النطق، وفي الخط عند الرقم ... وتسمى هذه الملائكة الروحانيات في عالم الأرواح بأسماء هذه الحروف، فلنذكرها على ترتيب المخارج حتى تعرف رتبتها.

فأولهم ملك الهاء، ثم الهمزة وملك العين المهملة وملك الحاء المهملة وملك الغين المعجمة...)) وهكذا [1].

وهذا يذكرنا بترتيب الحروف لدى الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي كان ولياً من أولياء الله كما ذكرت المصادر وكما أشرنا. الذي اكتملت على يده علوم العربية، كان ينطلق من تلك الأسس حتى أن بعضهم، يرى أن نظام التقليبات الذي وضعه لحصر جذور اللغة العربية، هو نظام كان يستخدمه الروحانيون من المسلمين. هكذا كان مصدر العلوم والله أعلم.

يعتمد الشيخ ابن عربي – وهو من كبار الصوفية _ على القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فضلاً عمّا يفتحه الله عليه من العلوم في نظرته إلى اللغة. يقول في قوله تعالى: ﴿ **وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ** ﴾ [2] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَصَدَّقَتْ**

[1] ينظر: الفتوحات المكية 448/2.

[2] النساء 171.

بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا ﴾ [1] ، وقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ((أوتيت جوامع الكلم))[2]:

تلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ((عند الله تعالى كلمات العالم بأسره من غير استثناء شيء منه البتة فمنه ما ألقاه بنفسه كأرواح الملائكة وأكثر العالم العلوي ...))[3] ، ثم يذكر كلاماً روحياً غريباً، عسير الفهم. إلا أنه في نص آخر – رأيت ذكره على طوله لأهمية – يدل على دقة فهمه للغة وأسرارها الروحية قلّما نجده لدى كبار علماء اللغة، قال: ((فبعد فهم جوامع الكلم الذي هو العالم الأحاطي والنور الإلهي الذي اختصّ به سرّ الوجود وعمد القبة وساق العرش وسبب ثبوت كل ثابت محمد صلى اله عليه وآله وسلم فاعلموا وفقكم الله أن جوامع الكلم من عالم الحروف ثلاثة: ذات غنية قائمة بنفسها، وذات فقيرة إلى هذه الغنية غير قائمة بنفسها ولكن يرجع منها إلى الذات الغنية وصف تتصف به يطلبها بذاته فإنه ليس من ذاتها إلا بمصاحبة هذه الذات لها فقد صحّ أيضاً من وجه الفقر للذات الغنية القائمة بنفسها كما صحّ للأخرى ذات ثالثة رابطة بين ذاتين غنيتين أو فقيرتين أو ذات فقيرة وذات غنية .

وهذه الذات الرابطة فقيرة لوجودها بين الذاتين ولابد فقد قام الفقر والحاجة بجميع الذوات من حيث افتقار بعضها إلى بعض وإن اختلفت الوجوه حتى لا يصح المعنى على الإطلاق إلا لله تعالى الغني الحميد من حيث ذاته، فلنسمِّ الغنيّة (ذاتا) ، والذات الفقيرة : (حدثاً) ، والذات الثالثة: (رابطة) ، فنقول ، الكلم محصور في ثلاث حقائق، ذات وحدث ورابطة: وهذه الثلاثة جوامع الكلم فيدخل الثلاث تحت جنس الذات أنواع كثيرة من الذوات، وكذلك تحت جنس كلمة الحدث .. والرابطة..

---

[1] التحريم 12.

[2] المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي (كلم) 6/ 58.

[3] الفتوحات المكية 58/1.

وإن شئت ان نقيس على ما ذكرناه فانظر في كلام النحويين وتقسيمهم الكلم الى الاسم والفعل والحرف وكذلك المنطقين فالاسم عندهم هو الذات عندنا، والفعل عندهم هو الحدث عندنا، والحرف عندهم هو الرابطة عندنا.

وبعض الأحداث عندهم كلها أسماء كالقيام والقُعود والضرب وجعلوا الفعل لكل كلمة مقيّدة بزمان معين. ونحن إنما قصدنا بالكلمات الجري على الحقائق بما هي عليه فجعلنا القيام وقام ويقوم وقم حدثاً، وفَصَلْنا بينهم بالزمان المبهم والمعين. وقد فطن لذلك الزّجّاجي فقال: والحدث: الذي هو القيام مثلاً هو المصدر يريد هو الذي صدر من المحدث وهو اسم الفعل يريد أن (القيام) هذه الكلمة اسم لهذه الحركة المخصوصة من هذا المتحرك الذي بها سمى قائماً فتلك الهيئة هي التي سميت (قياما) بالنظر إلى حال وجودها، و(قام) بالنظر إلى حال انقضائها وعدمها، و(يقوم) و(قم) بالنظر إلى توهم وقوعها، ولا توجد أبداً إلا في متحرّك فهي غير قائمة بنفسها...

والفعل يريد لفظه : قام ويقوم ، لا نفس الفعل الصادر من المتحرك قائماً مثلاً مشتقة منه الهاء تعود على لفظه اسم الفعل الذي هو القيام مأخوذ يعني قام ويقوم من القيام لأن النكرة عنده قبل المعرفة والمبهم نكرة، والمختص معرفة، والقيام مجهول الزمان، وقام مختص الزمان، ولو دخلت عليه أن ويقوم مختص الزمان، ولو دخلت لم وهذا مذهب من يقول بالتحليل انه فرع عن التركيب وان المركب وجد مركباً، وعلى مذهب من يقول بالتفريق وأن التركيب طارئ وهو الذي يُعضد في باب النقل أكثر فإن الأظهر أن المعرفة قبل النكرة عند المحققين وإن كان لهؤلاء وجه، ولكن هذا أليق ، وأما نحن ومن جرى مجرانا ورقى مرقانا الأشمخ ففرضنا أمراً آخر ليس هو قول أحدهما مطلقاً إلا بنسب وإضافات ونظر إلى وجوه ما يطول ذكرها...))[1].

[1] الفتوحات المكية 1/ 86.

إن الشيخ ابن عربي . رحمه الله . يرى علم النحو واللّغة أدنى مرتبة من علمه، ذلك إن علمه هو العلم الإلهي الذي لا يرقى إليه علم، وإنما العلوم كلها عيال عليه ، فهو فوقها يرفدها بالمعارف إذا شاء متخصصو هذه العلوم. ففي النص الطويل الذي نقلناه لأهميته، عقد الشيخ ابن عربي مقارنة بين فهم المتصوفة للغة وتراكيبها وبين فهم النحاة واللغويين لها. وقد تبين أن المتصوفة أدق فهما ونظراً وأعمق غوراً في تحليل اللغة وتراكيبها من النحاة واللغويين. وفي كتب ابن عربي ولاسيما (الفتوحات المكية) مباحث كثيرة من هذا النوع كبيرة الأهمية لاثراء الدرس اللغوي العربي المعاصر ، إلا إنها تحتاج إلى جهود متواصلة وأوقات طويلة، لم تتيسر لي في هذه الأطروحة لالتزامي بوقت محدد، لذلك أدعو إخواني الباحثين إلى القيام بهذه المهمة العلمية الشاقة خدمة للغتنا الكريمة، وإجلاءً لجهود الشيخ ابن عربي . رحمه الله . المخلصة في اللغة وفلسفتها.

إن الصوفي لا يدرس اللغة لذاتها وإنما يدرسها في ضوء الفلسفة الصوفية التي تعنى بالعلم الإلهي ، وهو العلم الذي تحتاج إليه كل العلوم – كما يقولون – لأنه يمدّها بالمعرفة الحقّة، والصوفي يضطر إلى تناول بعض مسائل اللغة لارتباطها بالفلسفة الصوفية من ذلك: مسألة التشبيه والتجسيم التي اختلف فيها الفقهاء اختلافاً كبيراً، فقد تناولها ابن عربي بقوله : ((ولما كانت الألفاظ عند العرب على أربعة أقسام :

1- ألفاظ متباينة وهي الأسماء التي تتعدى مسمّاها كالبحر والمفتاح.

2- ألفاظ متواطئة وهي كل لفظ قد تووطئ عليها أن تطلق على آحاد نوع ما من الأنواع كالرجل والمرأة.

3– ألفاظ مشتركة: وهي كل لفظة على صيغة واحدة تطلق على معان مختلفة كالعين والمشتري والإنسان.

4- وألفاظ مترادفة وهي ألفاظ مختلفة الصيغ تطلق على معنى واحد كالأسد والهزبر والغضنفر وكالسيف والحسام الصارم))[1].

ثم يضيف قائلاً: ((هذه هي الأمهات مثل البرودة والحرارة واليبوسة والرطوبة في الطبائع وثم ألفاظ متشابهة ومستعارة ومنقولة وغير ذلك وكلها ترجع إلى هذه الأمهات بالاصطلاح، فإن المشتبه وإن قلت فيه أنه قبيل خامس من قبائل الألفاظ مثل النور يطلق على المعلوم وعلى العلم الشبه العلم به من كشف عين البصيرة به المعلوم كالنور مع البصر في كشف المرئي المحسوس فلما كان هذا الشبه صحيحاً سمى العلم نوراً ويلحق بالألفاظ المشتركة فإذن لا يفك لفظ من هذه الأمهات وهذا هو حد كلّ ناظر في هذا الباب ، وأما نحن فنقول بهذا معهم وعندنا زوائد من باب الإطلاع على الحقائق من جهة لم يطلعوا عليها علمنا منها أن الألفاظ كلها متباينة وإن اشتركت في النطق ، ومن جهة أخرى أنها كلها مشتركة وإن تباينت في النطق وقد أشرنا إلى الشيء من هذا فيما تقدم من هذا الباب... فاعلم أيها الولي أن المحقق الواقف العارف بما تقتضيه الحضرة الإلهية من التقديس والتنزيه وفي المماثلة والتشبيه لا يحجبه ما نطقت به الآيات))[2].

النحو الصوفي:

النحو الصوفي . إذا صحّ التعبير . ينأى عن النحو المعروف، إذ فيه من الغرابة الكثير، على الرغم من أنّ الصوفية استندوا إلى النحو المعروف الذي سمّاه عبد الكريم القشيري بنحو العبارة ، أما نحوهم فسمّاه: **نحو القلوب** . وألف فيه كتابين: صغيراً وكبيراً ، بالعنوان نفسه[3]. عرض فيه موضوعات النحو والصرف بإيجاز، عرضاً غريباً، صوفياً خالصاً، لا نجد رابطا بينه و بين النحويين سوى المصطلح

(1) الفتوحات المكية 88/1.

(2) الفتوحات 88/1.

(3) نشر بتحقيق مرسي محمد علي ومحمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت.

النحوي المعروف الذي كساه دلالة صوفية لأدنى موافقة، لا صلة لها بالأصل النحوي الذي استند إليه النحاة في وضع المصطلحات. وهو أمر أقرب إلى التلفيق منه إلى الأسس العلمية الرصينة في وضع العلوم ذلك إنه لا يضيف جديداً ولا ينفع طالب النحو أو اللغة. لذلك لم يوفق ولم يكتب له الشهرة، فأكثر النحاة المعاصرين لا يعرفونه، فضلاً عن القدامى الذين لم يشيروا إليه.

إن (نحو القلوب) للقشيري، محاولة غريبة، لا نعلم هدف القشيري منها، ولا نعرف فائدتها. والذي يغفر له ذلك ما ذكرناه من أنهم يربطون كل شيء بالله ولله. فالصوفي ((يرى جميع الأشياء من الله قائمة بالله، معلومة لله، مردودة إلى الله))[1].

ونجد مثل هذا الاستخدام لمصطلحات علوم اللغة لدى الصوفية لادنى ملابسة وإن كانت ضعيفة أو بعيدة، نجدها لدى الشيخ ابن عربي، على الرغم من سعة علمه ودقته ولاسيما في المباحث اللغوية الصوفية الفلسفية ذلك إنه الأقرب منهما إلى هذه العلوم وأدق طرحاً ومناقشة للمسائل اللغوية والنحوية وقد أضاف إلى المصطلح اللغوي والنحوي دلالات وجودية ومعرفية، وإن كانت هذه الدلالات والأبعاد لا تنفصل عن معانيه الاصطلاحية بل تستند إليه كاستخدامه مصطلحي الفصل والوصل في البلاغة، إذ يقول : ((إن الإنسان الكامل ينوب مناب الحق في الفصل بين الموجودات أو الكلمات، كلمات الله تعالى الكثيرة))، ويقول: ((إن وجود الكلمات بالنطق يفترض بالضرورة وجود المتكلم الذي يفصل بين الكلمة والكلمات التي تليها، كما يفصل بين حروف الكلمة...))[2].

نعود إلى الإمام القشيري في محاولته الغريبة التي تناولت النحو والصرف بمنهج جديد غير مألوف لدى النحاة، يمكن أن نطلق عليها تسمية : **النحو الصوفي**.

---

[1] نصوص المصطلح النحوي 14.

[2] الفتوحات المكية 3/ 283، وينظر : فلسفة التأويل 338.

يعرّف أولاً الباب النحوي أو المسألة النحوية بإيجاز كما هي في كتب النحو ثم يقول هذا في نحو العبارة، ثم يذكر رؤيته الصوفية لها، أو فلسفته الصوفية، ويسميها: نحو الإشارة وهي محولة تدل على أنه يريد أن يبيّن أن ثمة وجه شبه بين طبيعة اللغة الإنسانية التي اختارها الله تعالى ليُنزل بها معجزته الخالدة (القرآن الكريم) وبين الإنسان الكامل أو العارف (الصوفي) وسلوكه إلى الله تعالى بعباداته ووجده. وإن لم نجد غالباً مناسبة بين مدلولي المصطلح وهذه الأفكار الصوفية ، ولا علاقة سوى التسمية ، فهو يشبّه قواعد النحو التي هي قواعد اللغة ونظامها بطبيعة الإنسان وسلوكه وحالاته الوجدانية، لأنه يرى أن ثمة علاقة بين اللغة والكون والإنسان، الذي هو العالم الأصغر أو الكون الأصغر وبما أن اللغة توازي الوجود وأن الكلمات توازي الأشياء أو الموجودات كما فصلنا فإن الإنسان (العالم الأصغر) يوازيهما، ويعقد موازنة بين علم الإشارة لدى الصوفيين، وعلم النحو فيما يذكره فيقول في الأسماء : ((الأسماء على ضربين : اسم معرفة واسم نكرة. وفي الإشارة : الخلق كذلك، فَمَن صاحب معرفة، ومن صاحب نكرة، ولكل حدّ ووصف، فالاسم النكرة معرفة ولا رتبة فوق أن صار معرفة. كذلك لا رتبة للعبد فوق العرفان)) [1]

معنى الإشارة :

يرى الإمام القشيري أن النحو عبارة عن القصد والناس مختلفون في المقاصد ومفترقون في المصادر والموارد، فواحد تقويم لسانه مبلغ علمه، وواحد تقويم جنانه أكثر همه، فالأول صاحب عبارة، والثاني صاحب إشارة.

[1] نحو القلوب 12 ، وينظر مقارنة بين الواحد والجمع وبين المسلمين في: نحو الإشارة ونحو العبارة ، إذ يشبه ذلك بالإنسان الكامل، النصوص 9، 10 ، 11، 12 من الكتاب.

وقد عرف التصوّف في عصر أبي حيان التوحيدي بعلم الإشارة كما تشير بعض كتبه إذ عرّفه: ((بأنه إشارات إلهية وعبارات وهمية))[1]، قالت الدكتورة (طيبة الشذر): ((إن الإشارة إلى علم التصوف بالإشارات والعبارات كان أمراً معروفاً متداولاً لدى الصوفية في عصر أبي حيان))[2].

والإشارة هي : ((ما يخفى على المتكلم كشفه بالعبارة للطافة معناه))[3] ، وقال الروذباري رحمه الله : علمنا هذا اشارة فإذا صار عبارة خُفي)). يقال : فلان صاحب إشارة ، معناه : أن يكون مشتملاً على اللطائف والإشارات وعلم المعارف مثل قول القائل : أنا بلا أنا، ونحن بلا نحن، وأنا أنت وغير ذلك. وهي أن يشير المتكلم إلى معان كثيرة بكلام قليل يشبه الإشارة.

والإشارة هي اللغة الإلهية التي لا يدركها عامة الناس، لذلك احتاجوا إلى رسل يشرحونها لهم وينقلونها إلى لغتهم. وهذا ما يراه الشيخ ابن عربي ويرى: ((أن العلاقة بين العبارة والإشارة هي العلاقة بين الظاهر والباطن، فظاهر العبارة هو ما تدل عليه من حيث وصفية اللغة. والإشارة هي باطنها من حيث هي لغة إلهية. وإذا كان أهل الظاهر يتوقفون عند العبارات ومعانيها التي تعطيها قوة اللغة الوصفية، فإن العارفين ينفذون إلى ما تشير إليه العبارة من معان وجودية إلهية أي ينفذون إلى باطنها الروحي العميق))[4].

فالوسائل التي يستخدمها عامة الناس في الاتصالات تكون دائماً عن طريق التخاطب أو التحاكي أو المقابلة، أما أهل الخصوص فيستخدمون الإشارة تعبيراً وإرسالاً واستقبالاً [5] .

---

(1) الإشارات الالهية 113.

(2) ألفاظ الحياة الثقافية في مؤلفات ابي حيان التوحيدي 714.

(3) نصوص المصطلح الصوفي، د. نظلة الجبوري 18.

(4) فلسفة التأويل 268.

(5) ألفاظ الحياة الثقافية 716 ، والألفاظ الصوفية ومعانيها 53.

نعود إلى **نحو الإشارة أو نحو القلوب** لنذكر أمثلة منه :

ففي أول الكتاب يذكر القشيري تعريف النحو في اللغة ، وهو القصد إلى صواب الكلام. وفي نحو القلوب : القصد إلى حميد القول بالقلب وحميد القول في مخاطبة الحق بلسان القلب [1] .

أما تقسيم الكلام على اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، في نحو القلوب : الاسم هو الله تعالى والفعل ما كان من الله تعالى ، والحرف إما يختصّ بالاسم فيوجب حكماً أو يختص بالفعل فيقتضي له نسبة، وكما أن الحرف إذا دخل على اسم أوجب له إما حكم النصب أو الخفض أو غيره ، فالوصف الذي هو العلم (مثلاً) يوجب لله حكم العلم... وكذلك القدرة والحياة وسائر صفات الذات .. والحروف رباطات تتم بها فوائد نطق القلب [2].

أما الكلام المفيد وهو ما كان اسماً واسماً أو فعلاً واسماً ، وما عداه غير مفيد هذا في نحو اللسان، وعرّفه النحاة، هو اللفظ المفيد فائدة يُحسن السكوت عليها [3] ، وفي نحو القلوب : فغير المفيد ما ليس لله، والمفيد ما يسمع من الحق أو يخاطب به الحق ، وما سواه فلغو)) [4] فهو لا يرى سوى الله ولا قدرة غير قدرة الله، وكل شيء لله وفي الله.

والاسم : صحيح ومعتل ، والصحيح ما سلم من حروف العلة: الالف والواو والياء. أما أهل الإشارة فقالوا : الاسم الصحيح ما سلم من الف الإلباس ، وواو الوسواس ، وياء اليأس ، فقد صحّ اسمه وحقّ له الإعراب وهو البيان [5] .

---

[1] نحو القلوب 7.

[2] نفسه 8.

[3] نحو القلوب 4.

[4] نفسه 8.

[5] نحو القلوب 41، وانظر : رسالة القشيري 85.

ويرون أن سبب إفراد الأسماء الستة بالإعراب بالحروف لخصوصيتها، كذلك من الناس من خُصّ عن أمثاله وافراد بالأحكام من بين أضرابه.. أي باين حكمة حكم من سواه وانفرد عنهم في معناه [1].

وهكذا يتناول مسائل المبتدأ والخبر والأبواب الأخرى بتعليلات صوفية لا تغني النحوي شيئاً أو طالب النحو. فهو يطبق علم الإشارة على علم النحو. وعلم الإشارة هي إشارات غير واضحة بدقة وإنما بحسب تفسير الصوفي للإشارة نفسها إذ إن الإشارة واحدة وتفسيراتها تختلف من صوفي إلى آخر.

أما الأفعال فقال عنها: ((الإشارة كذلك : أفعال العبد على قسمين : لازم ومتعد، فاللازم ما تكون بركاته على صاحبه مقصورة ، والمتعدي ما تتعدى خيراته إلى الغير)). كذلك العبد قد تتعدى بركاته إلى عالم من الناس حتى قال الشيوخ : لو أن ولياً من أولياء الله اجتاز ببلد لغفر الله لأهل هذا البلد))[2].

وهكذا يشبه الأفعال الخمسة بأفعال البشر منها ما لا يقبل إلا بزيادة كرمي الجمار ، والصحيح والمعتل والمضاف وحروف الجر والنصب والجزم ، والنعت والشرط والمنادى والاستثناء والممنوع من الصرف والعدد .

وهكذا يأتي على جميع أبواب النحو والصرف متبعاً منهجاً في عرض الأبواب وقواعدها الرئيسة وليست الفرعية على الطريقة نفسها.

أما ترتيبه للموضوعات فليس على الترتيب المشهور وهو ترتيب ابن مالك وإن بدأ معه لأن ابن مالك متأخر عنه ولا على ترتيب الزمخشري أو غيره ممن اشتهر ترتيبهم لأبواب النحو . فيقدم ويؤخر بعض الأبواب على بعض.

وهكذا يقارن بين علم النحو وأصوله وفروعه وبين البشر وحالاتهم ودرجاتهم. فالصوفي لا يرى غير الله، فكل شيء منه وإليه، كل حياته وأعماله وتصرفاته

---

[1] نفسه 15.

[2] نحو القلوب 15.

وتقلباته وحالاته النفسية والعقلية وعباداته وسلوكه وغير ذلك. فيعقد موازنة بين قواعد اللغة وحالات الناس وأعمالهم كالصحيح والمعتل والمضعف والمثال والأجوف والناقص واللفيف والمدغم والمهموز يوازن بينها وبين أنواع الناس فمنهم أيضاً الصحيح والمعتل والأجوف ... ونحو زيادة الواو في عَمْرو فرقاً لعُمَرْ وفي الإشارة أن من الناس من يلحق بالطريق لأجل الغير ثم يطرح، لأن الحاق الواو لا يدوم عند الاستغناء عنه مثل همزة الوصل.

والاسم الموصول لا تتم الفائدة إلا بصلته كذلك من الناس من لا يستقل بتدبيره ولا يكون له يد من غيره فهو يأخذ الأحكام العامة والقواعد الرئيسة ويبتعد عن المسائل الدقيقة الخلافية الشائكة، وقد بيّنا أن اهتمام المتصوفة باللغة اهتمامٌ خاص بنظرتهم إلى اللغة التي هي جزء من الكون أو صورة له أو أنها صور خلفها أرواح ووجدنا لهم فهما للنحو خاصاً ينطلقون منه لعلومهم الوجدانية.

الإعراب :

يشبه الإمام القشيري الحركات الإعرابية بحالات أهل الإشارة برفع هممهم إلى الله تعالى. ونصب أبدانهم في طاعته وخفض نفوسهم تواضعاً له وجزم قلوبهم عمّا دونه وسكونهم إليه تعالى.

والمبني ما كان مستقيماً في حاله لا يتغير وهم أصحاب التمكين. وشبه المعرب المتغير بأصحاب التلوين ، وهم أرباب أحوال ما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين لأنه يرتقي من حال إلى حال ، وينتقل من وصف إلى وصف.. فإذا وصل تمكن[1].

ويقول في موضع آخر: المعرب الذي يتغير آخره باختلاف العوامل، والمبني ما يكون على صيغة واحدة.. وكذلك صفات العبد منها ما يقبل التغير والتأثير وهي ما كان مجموعاً بتصرفه وتكلفه ، ومنها ما لا يقبل التحويل والتبديل وهي

[1] نحو القلوب 41، وينظر: نصوص المصطلح الصوفي 61.

موضوعات الحق – سبحانه – فيه من أخلاقه ، ويكون ذلك بحسب ما سبق له من أرزاقه، وكذلك من أحكامه فيما وجب له من سابق أقسامه ، فمن شقى نفذ بالرد قضاؤه ، ولم ينفعه كدّه وعناؤه. ومن سعد مضى بالقبول حكمه فلم يخرجه عن محكوم السعادة جُرحه.

((ومن أقسام البناء ما يبنى على الكسر، فصاحبه أبداً مكسور لا ينجبر كسره، ولا يتغير فقره، ولا يزول ضرّه .. وجده منكوس .. ونجمه منحوس ، وقصده معكوس. ومن ذلك ما ينبني على الفتح، فصاحبه لا يزول نعيمه ولا يبرح مقيمه ، يسطح من البعد نسيمه ويسعد على القرب نديمه .. ومن ذلك ما يبنى على الضمّ ، فصاحبه مرفوع عنه كلفة الأختيار، غير معاتب على اختلاف الأطوار، ولا متلوّن الحكم عند تفاوت الآثار ..))[1] ومن ذلك أن اللغة توازي الوجود لدى الصوفية كما مرّ بنا. وفي نَصٍّ آخر يعلل حركات الإعراب تعليلاً صوفياً آخر.

العامل :

لاحظنا أن نحو القلوب لا يعير العامل اللغوي أهمية ، وقد يلغيه كما تبين في النصوص السابقة، وكما أكّد القشيري على ذلك في كثير من مواضع كتابه (نحو القلوب). وكذلك في تفسيره الكبير : (لطائف الإشارات) إذ يرى العامل الحقيقي هو الله تبارك وتعالى ، لذلك لم يجوّز السؤال عن العامل أو التعليل ذلك أنهما بأمر الله تعالى وبمشيئته .. أما النحاة فأرجعوا كل شيء إلى العامل كما نعرف إذ حكّموه وجعلوه هو الذي يجلب الحركات ظاهراً ومقدراً وبنوا نظرية شائكة واسعة وألفوا فيها كتباً وكتباً [2] ، وقوله هذا يذكّرنا بقول ابن مضاء القرطبي الذي أرجع العمل إلى الله تعالى مرة وإلى المتكلم مرّة أخرى [3].

---

[1] نحو القلوب 11–12.

[2] ينظر : لمع الأدلة 16والاقتراح 25.

[3] ينظر : الرد على النحاة 29.

ولولا ظاهرية ابن مضاء لقلنا انه قد تأثر بالقشيري أو بالمتصوفة في إلغائهم العامل النحوي، لكن القشيري يقرّ بالعامل الروحي المرتبط بالله تعالى وبمشيئته وحكمه في خلقه إذ نجد له تعليلات هنا وهناك تقرّ بالعامل لكنه العامل الروحي.

التعليل :

لا يرى الإمام القشيري علةً لكثير من الأحكام النحوية فيقول مثلاً في بسملة سورة الحجر : ((سقطت ألف الوصل من كتابة (بسم الله) وليس لإسقاطها علة، وزيد في شكل الباء من (بسم الله) وليس لزيادتها علة، ليُعْلَم أنّ الإثبات والإسقاط بلا علة، فلا يقبل من قبل لاستحقاق علة، ولا ردّ من رد لاستحباب (استحقاقه) علة. فإن قيل في إسقاط الألف من بسم الله كثرة الاستعمال .. فلم يبعد إلا أن الإثبات والنفي ليس لهما علة، ((يرفع من يشاء ويمنع من يشاء...))[1].

ومع ذلك نجده يعلل تعليلات روحية، يرجع كل علة إلى الله وهو أمر لاشك فيه، لكن الله تعالى خلق الأشياء بالأسباب الطبيعية، فلا يتقاطع هذا مع ما ذكره. من ذلك تعليله نصب الاسم كالحال والمتعجب منه والتمييز، والمفعول به والمفعول المطلق والمفعول لأجله والظرف والمفعول معه وغيرها . والمشهور لدى النحاة أن النصب علم المفعولية أو التكملة.

يرى القشيري أن في علم الإشارة ، النصب أضعف الحركات فإذا دخل التعجب على الاسم خصّ بالفتح الذي هو أضعف الحركات، كذلك إذا دخل الإعجاب على المرء آل الى أضعف الحالات، فإن الإعجاب أشدُّ الآفات. وتنصب الحال لأنه مفعول ، وتأتي بعد تمام الكلام لذلك صارت كالمستغنى عنه فنُصب .. والإشارة : المستغنى عنه له أضعف الحركات وأقل نصيب من الاستحقاق، ولهذا

[1] لطائف الإشارات 27/1.

قيل : علامة المخلوق أوصاف النقص، لأنَّ المخلوق مستغنى عنه. قال تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ** ﴾ [1] .

وينصب التمييز تشبيهاً بالمفعول حيث أتى بعد تمام الكلام نحو: عندي عشرون درهماً ((والإشارة أن المفعول لنقصانه عن الفاعل خصّ بالنصب لضعف المفعول وضعف الفتحة))[2] .

فعلّتا القوة والضعف هما العلتان الأساسيتان اللتان في ضوئهما فسّر القشيري أكثر الحالات الإعرابية فالرفع أقوى الحركات فالمرفوع يستحق الرفعة كالفاعل والمبتدأ، والعلو للحق سبحانه وتعالى لأنه الفاعل على الحقيقة وليس لغيره قدرة على الاختراع ، ولانه المبتدأ في الأمور فهو الأول السابق واستحقا الرفعة والعظمة لهما. أما المنصوب فأنقص رتبة من الفاعل والمبتدأ لخفته فخصّ بما هو الأخف من الحركات، كذلك الخلق هم المفعولون فإنهم في حالة العجز والنقص لأنهم في أسر القدرة وتصريف القبضة والمفعول على أقسام : المفعول به والمفعول المطلق والمفعول فيه ولأجله ومعه ((كذلك المفعولات على أقسام : فالجمادات مفعولات على الاطلاق والحيوانات مفعول بها تجري عليها أحكامه سبحانه . في النفع والضر ، والمكلفون مفعول لهم خلق لأجلهم الجنة والنار ، وأحوال المكلفين فيها لأنهم يعملون بالمعاصي والطاعات فيها، والبلاء مفعول معه لأن بني آدم خلقوا والبلاء والعفاء معهم))[3] ، أما المضاف إليه فله الخفض وهو أضعف الحركات الإضافية كذلك العبد ما دام مجرداً فله أقوى الحالات فإذا جاءت العلاقة صار إلى أضعف الحالات.

---

[1] محمد 38.

[2] نحو القلوب 36 – 37.

[3] نحو القلوب 21.

وبالطريقة نفسها التي لا ترى سوى الله ولله تعالى، وتتجاوز التعليلات العلمية والأسباب المنطقية التي يذكرها العلماء لتفسير الظواهر الطبيعية ومنها اللغوية. بالطريقة نفسها طريقة (المشابهات) يتناول كان وأخواتها وإن وأخواتها وبناء الفعل الماضي وإعراب الفعل المضارع. ويعلل تعليلات روحية فلسفية تربط بين الإنسان وقواعد اللغة [1].

الخاتمة

إن الإسلام دين سماوي، سعى إلى تهذيب الروح، وترسيخ الأخلاق السامية في كل الميادين ولاسيما في العلوم ونشر المعرفة، ولولاه لما وصل الينا هذا التراث العلمي الهائل بمختلف الاختصاصات ومنها علوم العربية التي نشأت في ظل الجو الإسلامي الروحي الذي كان سائداً لدى الطوائف الأولى من رجال الدين والقرآن. وقد دلّت الدراسات اللغوية المتقدمة ان اللغة العربية لغة مقدسة، مرتبطة بالإسلام ارتباطاً روحياً لا انفصام له، إذ لا يوجد أحدهما بدون الآخر، وإن العناية الإلهية هي التي بلغت بالعربية إلى هذه الرتبة العالية من القوة والوضوح، وذلك لتهيئتها إلى الحدث العظيم (نزول القرآن الكريم) المعجزة المطلقة. وغير خاف على أولي العلم معنى الفصاحة العالية، إذ هي القوة الروحية، وهي مصدر العلم، وهي النجاح في القيادة والصبر في الملمات هي سمو النفس وقوة العقل وقمة الذكاء، وكل الخصال الحميدة.

وثمة حقائق أو نتائج أشرنا إليها تارة بإجمال وأخرى بتفصيل، منها:

- إن للتصوف الإسلامي نظرة إلى اللغة العربية فلسفية روحية، وقد بذلوا جهداً متفرّقاً في بحوثهم لخدمة اللغة العربية، ولهم طروحات قد تتقاطع ظاهراً مع البحث الأكاديمي المعاصر، غيبية ، وغريبة، ومغرقة في الفلسفة الإلهية، وإن

[1] نفسه 23.

استعانوا بالنحو وعلم اللغة إلا إن كلامهم عسير الفهم، غامض ما لم نرجع إلى أسس علم التصوف ومبادئه ومصطلحاته وفلسفيته.

- **يرى الصوفية أن هناك توازياً بين الوجود واللغة، وإن حروف اللغة أرواح وملائكة، أما الحروف المنطوقة فهي تمثل أجساد هذه الأوراح وصورها الظاهرة.**
- **إن النحو الصوفي أو (نحو القلوب) لا صلة له بالنحو المعروف سوى المصطلح النحوي الذي استخدموه بدلالات صوفية وذلك إذا وجدوا أدنى موافقة بين الدلالتين وإن كانت بعيدة، وإن كانت غامضة.**
- إن الشيخ ابن عربي . رحمه الله . من كبار علماء التصوّف الذين درسوا اللغة العربية دراسة روحية في ضوء الفلسفة الصوفية، وله جهود مخلصة وكبيرة في ذلك ولاسيما في كتابه الموسوعي (الفتوحات المكية) تحتاج إلى جهد متواصل وزمن طويل لم يتوافر لدي لذلك ادعو اخواني الباحثين إلى مواصلة البحث في هذا الجانب وإن كان عسيراً ، خدمة للغتنا الشريفة.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الاقتراح في علم أصول النحو، الإمام جلال الدين السيوطي (911هـ)، تحقيق: د. أحمد سليم الحمصي ، د. محمد احمد قاسم، ط1، جروس برس 1988.
- بنية العقل العربي، دراسة تحليلية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، د. محمد عابد الجابري، ط6، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2000.
- التصوّف الثورة الروحية في الإسلام، د. أبو العلا عفيفي، ط1، 1963.
- التعرف لمذاهب أهل التصوّف، أبو بكر محمد الكلاباذي (380هـ) ، تحقيق: د. يوحنا الحبيب، ط1، دار صادر ، بيروت 2001.
- الحياة الروحية في الإسلام، د. محمد مصطفى حلمي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، مصر 1945.
- دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة: مجموعة من الأساتذة، طبعة طهران.

- دائرة المعارف السحرية، مجموعة مؤلفين، ترجمة : خليل سابا وآخرون، دار النشر والتأليف التجارية ومطبعتها بمصر (د.ت).
- الرد على النحاة، ابن مضاء القرطبي، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر (د.ت).
- رسائل ابن عربي، تقديم محمود الغراب، ضبط محمد شهاب الدين العربي، ط1، دار صادر، بيروت 1997.
- الرسالة القشيرية في علم التصوف، أبو القاسم القشيري (465هـ)، دار التربية ، مطبعة واوفسيت منير، بغداد (د.ت).
- الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، الشيخ أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي (322هـ)، تحقيق: حسين بن فيض الله الهمداني، ط1، مركز الدراسات والبحوث اليمني، 1964.
- الفتوحات المكية، الشيخ محي الدين بن عربي (678هـ)، دار صادر، بيروت (د.ت).
- فقه اللغة في الكتب العربية، د. عبدة الراجحي، دار المعرفة الجامعية 1980.
- فلسفة التأويل، دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين بن عربي، د. نصر حامد أبو زيد، ط1، دار التنوير، دار الوحدة بيروت 1983.
- كتاب الرياضة وأدب النفس ، الحكيم الترمذي ، تحقيق: د. أ.ج.أربري ، البابي الحلبي بمصر 1947.
- كشاف اصطلاح الفنون، محمد علي الفاروقي التهانوي (1025هـ)، تحقيق: ج. لطفي عبد البديع، د. عبد المنعم محمد حسنين، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة 1963.
- الخليج، الدار العربية للموسوعات، بيروت 1989.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم، جار الله الزمخشري (583هـ)، ط1، دار الفكر 1977.
- الكليات، أبو البقاء الكفوي (1094هـ)، تحقيق: د. عدنان درويش، ومحمد المصري، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت 1998.
- لطائف الإشارات، الإمام القشيري، تحقيق: د. إبراهيم بسيوني، ط2، الهيئة العامة المصرية للكتاب 1981.
- لمع الأدلة في أصول النحو، أبو البركان الأنباري، مطبوع مع الأغراب في جدل الأعراب ، تحقيق: سعيد الأفغاني ط2، دار الفكر ، بيروت 1971.

- مجاز القرآن ، ابو عبيدة (210هـ)، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، ط1، نشر الخانجي بمصر 1962.
- مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، لفخر الدين الرازي (604هـ)، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت 1981.
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، طاش كبري زادة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1985.
- مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الأصفهاني (425هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط1، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت 1996.
- المقصد الأسنى في شرح معاني اسماء الله الحسنى، أبو حامد الغزالي، تحقيق: فضلة شحادة، ط2، دار المشرق، بيروت 1986.
- مكانة العقل في الفكر العربي، ندوة المجمع العلمي العراقي، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1998.
- نحو القلوب ، الإمام أبو القاسم القشيري (465هـ)، تحقيق: مرسي محمد علي، محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت).
- نحو وعي لغوي، د. مازن المبارك، مؤسسة الرسالة، بيروت 1979.
- نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، د. عرفان عبد الحميد فتاح، المكتب الإسلامي، بيروت 1974.
- النص، السلطة، الحقيقية، الفكر الديني بين إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، د. نصر حامد أبو زيد، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 1997.